الاباضيـــة موكب التـاريخ

الحلقـة الثـالثـة

تاليف علي يحيي معمـر

بدا اهتمامي بالاباضية، منذ نيف وعشرين سنة، حيث قـرأت في «المجلـة الاسلاميـة» التي تصدر في لندن بالانجليزية «اسلاميك رفيو» هـذا العنوان «مملكـة فارسية بشمال افريقية».

فاستهواني هذا العنوان، واكببت على قراءة المقـال، الـذي كـان حـول مملكـة الرستميـين بتاهرت، وتتبـع مراحلها التي قطعتهـا في التاريخ، ثـم ما حل بها عند الغـزو العبيدي، من تشتيت وتشريـد، ثـم ذكر الاماكن التي استقرت بها هذه الامة واهمها ما كان بالجزائر وليبيـا، وما تعرض له هؤلاء اللاجئون عند الحرب العظمى وما تلاها من محن الاستعمار الايطالي والفرنسي.

حقيقة كان البحث شيقا ممتعا جامعا، وقد كـان منطلقا لي في بحثي حـول هؤلاء الرستميـين، فتأت لي دراسة وافيـة، كما اعتقدت، ونشرتها في «صحيفة المعهد المصري» بمدريد سنة 1957 (العدد 1 ـ 2) بعنـوان «دولـة الرستميـين أصحـاب تاهـرت».

وهكذا بقيت الهمة متعلقـة بالاباضية من حيث اتصال هـذه الدولة بهم، وكـان أهم مرجـع لي في شأنهم، كتاب الازهـار الرياضية لعبد الله البارونى، وهو بحق عمدة غالب الكتاب في هـذا الموضوع، اعتمد عليـه صاحب المقـال السالف واعتمد عليه عثمان الكعـاك عندما تعرض فى كتابـه «موجز التاريخ العام للجزائر» لدولة الرستميـين، واعتمد عليه مؤلفنا الذي نحن بصـدده، ولا شك أن اعتماده عليه في الحلقتين الاولى والثانية كـا اقوى منه فى هـذه الحلقة، وان لم أكـن مـع الاسف قد اطلعت عليهما حتى الآن.

والواقع ان هـذه الحلقة أجمع ما كتب في تاريخ اباضية تونس وجزيرتهم «جربـة» الخالدة، فلقد تناولهم منذ نشأتهم الى الآن وتعرض للاحداث التـي تعرضوا لها، والفتن التي خاضوها، والحركـة العلميـة التي قاموا على رعايتها،

الى غير ذلك، مما صوره لنا في فصوله الممتعة، وفي تراجم رجال الاباضية، الذين لا تقتصر معرفتهم على ان تمدنا بمعلومات قيمة عن اباضية تونس وحدهم.

والكتاب يتناول موضوعه بحرارة وحماس، لم يقصد صاحبه أن يعرض عليك التاريخ ويشرحه، كما يشرح الطبيب الجثث في برود وعدم انفعال، وان كان المؤرخ، كما يقال، يجب أن يتعرى من عواطفه، بل يعرض عليك التاريخ وأنت تشعر أنه جزء منه وأنه يعظك ويذكرك به، ويستجلي لك العبر من احداثه واحزانه، لا يفتر في هذا ولا يني من أول صفحة الى أن يصل الى آخرها من الكتاب وهي التي سطر عليها «كلمة الختام» فكانت الصفحة 430.

وهذا لا يعاب به المؤلف، ما دام غرضه قد أفصح به، وهو ليس التاريخ المجرد، مما جعله ينطق في حرية فيكرر في بعض الأحيان، ويقدم ويؤخر في التارجم، بدون ما يلتزم نظاما، لا زمنيا ولا هجائيا، ولا غير ذلك من الالتزامات.

فيه قصص، وفيه وعظ، ولكن فيه أيضا منهجية لبعض فصوله، التي من أهمها ما عقده لجزيرة «جربة» وما تعرضت له من محن، وما كان من آثار تلك المحن، في داخلها وخارجها.

لقد أطلعنا المؤلف على صفحات قائمة مظلمة، سطرها المعز بن بادس، تلك الصفحات التي كنا غافلين عنها، ونحن المالكية نعم المالكية، الذين نظرو بمنظار أسلافهم، الراضين عن المعز، الذي ثار على الفاطميين، وفتك برجال من الاباضيين، فآمنت بأن المذهب له دخل في التقويم، وان حاول صاحبه أن يتجرد منه، ويتخفف من مسوحه الثقال.

ولولا أن المؤلف بدا لنا مخلصا في عرضه، لكنا نتهمه بالمذهبية أيضا، ونقول انه ما نظر الا من زاويتها، على انه وان كان بهذا الاخلاص، لا يخلو من تحيزه الخفيف لاباضية الجزيرة، فيجعل البطولة لهم في المواقف التي ثبتوا فيها، حتى ولو كان من ورائهم من يؤيدهم ويشد أزرهم، ويبرئهم من كل ما الصق بهم او يعتذر عنهم، حتى ولو كان اصحاب المعاجم يجمعون على مؤاخذتهم كالبكري ومن اتى بعده منهم.

وأنا على معرفتي المحدودة بهم، أحس بشيء من التحيز وشيء من التحامل على المعز، والأيام كفيلة بأن توافق أو تخالف فيما أحسست به، احساسا مجردا او قريبا من المجرد.

هذا وان ملاحظة المؤلف على الباروني، فيما كتبه عن الحملة الاسبانية واسباب اندحارها، ملاحظة صحيحة ولا محال فيها للشك أو النقاش، فالباروني، على اخلاصه فيما كتب، عن الاباضية بالخصوص، اخذ بالمراجع الاسبانية المعتمدة على التقريرات الكاذبة في تصوير ذلك الاندحار المخزى للاسبان، والمشرف لأولئك الجربيين الافذاذ في بطولتهم واستماتتهم واستشهادهم.

وان كانت لنا من ملاحظة على الكتاب، فذلك ما يتصل بالمطبعة غالبا ولا يتصل بالمؤلف كذلك، يتصل بالمطبعة العربية على العموم، لما يقع منها من تصحيف، وان كان في هذا الكتاب لا يتعدى عدد الانامل، ومن هذا القبيل هذا البيت الزهيري، الذى يجب أن يكتب كما يلي :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

(ص 223)

اما ما عدا هذه، فنحو «ولا زلت» الواردة في الصفحة 8، وصوابها وما زلت، لأن «لا» لاتدخل على الماضي الا في أحوال ليس هذا منها، وهذا الخطأ في فعل «زال» بالذات، عم المشارق والمغارب، وهو لحن صراح سواء كان بالمشارق أم بالمغارب.

ونحو «النضوج» الواردة في الصفحة 42، وهي من الاخطاء الشائعة شيوع سابقا، ولا يوجد الا «النضج» بفتح النون وضمه، وسكون الضاد، والقياس فتحها معا. اما النضوج فلا يبيحه لا السماع ولا القياس، حيث ان هذا الوزن مقيس في فعل، بفتح العين، وهو لازم كما قال ابن مالك :

وفعل اللازم مثل قعدا له فعول باطراد كغدا

وجلس ونهض وسكت وجحد وسجد وركع، وهذا بشروط لا لزوم لذكرها الآن، وقد ذكره ابن مالك فيما بعد هذا البيت.

وفي الصفحة 345، ياتي ببيتين، وينسبهما «للشاعر القديم» ويكرر ذكر هذا «الشاعر القديم» مرتين، مع أنه ليس قديما، بل من البلاد التي تنتمي اليها الجزيرة، وهو ابن رشيق القيرواني، من رجال القرن الخامس، كما هو معروف، والبيتان ليسا كما ذكرهما المؤلف الفاضل، بل هما كما يلي :

مما يزهدني في أرض اندلس تلقيب معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

واخيرا، نكرر شكرنا للمؤلف الفاضل، مؤملين له مزيدا من هذا العمل المجدي، الذى انتفعنا منه كثيرا.